قصة قصيرة

الشمس وقصص اخرى

نيروز مالك

١ ـ كوب من الشاي البارد .

قام من مكانه ، راح يدور حول نفسه كالبغل المعصوب العينين « لو بمقدوري ركل هذا العالم الحقير بقدمي. »؛ كانت الغرفة غارقة في الصمت والسكينة . الطاولة ، الكرسي . الاريكة القديمة ، الستائر المسدلة على النوافذ « أبهذه السرعة يمكن للانسان أن ينتهي؟ أية حياة تافهة؛ حقيرة هذه التي نشقى من اجلها ؟ » ، شعر بجفاف في حلقه كأرض عطشى .

ظل يدور في وسط الغرفة ، يبحث عن اسباب هذا الخواء في نفسه ، هذا الموت البطيء الذي يتسلل الى حياته « أشعر كأن مياه الحياة قد نضبت في اعماقي »، اخذا وجهه بين راحته ، تهالك على الكرسي مسندا مرفقيه على طرف الطاولة الدائرية .

كانت الطاولة مغطاة بخوان ازرق جاف ، فوقها مجموعة من الاوراق ، قلم حبر ناشف ، قصاصات ممزقة ، منفضة مملوءة باعقاب السكائر وبكمية من الرماد واعواد الثقاب المحروقة . وعلى مقربة منها ، قدح من الشاي البارد ، القاتم « هذا الاحساس بعقم الحياة اشعر به منذ طفولتي، منذ تلك الايام التي كان والدي يتشاجر فيها مع والدتي، يمسكها من شعرها ، يجرها وراءه بين التراب والاشواك. كان الناس يتجمعون حولنا رويدا رويدا . واخوتي ينزوون في البيت ويبكون . اما انا ، فكنت اترك المنزل واتسكع في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل ، تفو ...» ، استقرت البصقة على الحائط ، قرب فراشة ميتة ، ثم انزلقت الى الاسفل ، استقرت على طرف النافذة الخشبي الباهت اللون .

نظر الى المصباح المتدلي من السقف كالمشنوق. شعر بنوع من الارتياح من العتمة التي راحت تخيم رويدا رويدا . ابتسم ساخرا من نفسه « لن اضيء المصباح. لقد مللت رؤية الاشياء المحيطة بي ... الطاولة ، والسرير، واللوحة ، والستارة ، والكرسي ، والازهار الصناعية، حتى الجدران سواء غمرت بالضوء او بالظلمة ، تبقى هي هي لا تتغير .» ، تمدد على السرير بعد ان اغمض عينيه، غاص في اعماقه الخاوية بينما كان الليل يزحف الى وجه العالم .

٢ ـ أزهار من البلاستيك .

جمعت كتبه ، رسائله ، كل ما يتعلق به ، ثم اضرمت فيها النار ، وبعد هنيهة من الزمن لم يبق من اشيائه التي كان قد تركها بين يديها سوى كومة من الرماد ، كومة صغيرة لا تتعدى حفنة يد جمعتها في كيس ورقي به ازهار ، ثم وضعت الكيس على الطاولة : ماذا تفعل بكومة الرماد هذه ؟ هل تبقيها لديها ؟ لو فعلت ذلك ، لعانت

مجددا من العذاب اكثر مما عانت سابقا . هل تقوم وتفتح النافذة وتنثر هذا الرماد في وجه الليل المخيم على المدينة بثوبه الاسود ؟

تنهدت ، راحت تعبث بكومة الرماد الموضوعة امامها على الطاولة . ما لبثت ان اخفضت رأسها ، اسندته على ساعديها وراحت تتذكر يوم لقائها الاول به . يومها ، شعرت بنشوة من يملك العالم كله . بعد ذلك لم تعرف سوى الفرح .

قالوا عنها : عاشقة . فلم تنكر وقالوا عنها : فتاة طائشة . سخرت منهم . قالوا عنها : ستندم . ادارت لهم ظهرها ، وسارت مع حبيبها في الحدائق والشوارع ومقاهي المدينة ...

رفعت رأسها ، ثم قامت . خطت فوق أرض الغرفة مطرقة الرأس ، والدمعة معلقة بين اهدابها وهي تؤكد لنفسها : بان الحب الذي حلمت به طويلا غير موجود في هذا العالم ، لان الشاب الذي ظنت ، يوم وضعت رأسها على صدره ، انه سينسيها عذاب الحياة ، ومرارة الايام، خانها ، ومضى.

مسحت دمعتها لتستكين الى ذاتها المكلومة وهي تنظر بعداوة الى كيس الرماد . كان الكيس مصدر عذابها الجديد . هل تنثر رماده في وجه الليل ؟ ام تقذف به في ركن من اركان الغرفة؟

لم تستطع حسم الامر في نفسها . ظل التردد مسيطرا على ارادتها . فأحست بعجزها التام . استكانت الى شللها ، ثم تهالكت على الكرسي . ألقت رأسها الى الوراء مغمضة العينين ، ممزقة الذات ، وفي اعماقها يجول صراع قوي . بينما مهر ادهم يعبر امام عينيها براري موحشة ، مزروعة بالعيون ، واثار اقدام عظيمة . عشرات من حشرات حقيرة لا تسعى ، تسعى اليها باصرار ، باردة ، لزجة ...

انتفضت مرتعبة ، محدقة فيما حولها . استغربت : أبهذه السرعة أغفت ؟ ردت ظهرها الى الوراء ، استقر نظرها على كيس الرمال ، شعرت بخدر كبير في اطرافها، تراخت ، تركت نفسها بين يدي عذابها القديم ـ الجديد.

٣ ـ طبيعة صامتة .

زجاجة خضراء منتصبة ، واخرى سوداء ممددة على الطاولة « لن تكون لي قيامة بعد هذه الهزيمة » داعب بحركة ميتة كوب الشاي الذي ابترد فيه السائل القاتم « لقد جرت الامور بطريقة لم أتوقعها ابدا ، كان الاجدر بي ان لا أتورط في مثل هذا الامر منذ البداية » ، عصر رأسه بين راحتيه وهو يحدق في خوان الطاولة الازرق « كان الحل في المرحلة الاولى ، سهلا ، حتى انه كان ممكنا تحويل بوادر الهزيمة الى نصر قبل ان تتعقد الامور وتصل الى ما وصلت اليه » قام من مكانه يضرب ارض الغرفة جيئة وذهابا « ما الحل ؟» وقعت عيناه على الزجاجتين والازهار الصناعية على الطاولة « باعتقادي انك تهول الامور اكثر مما يجب ، والخطأ الذي ارتكبته يمكن اصلاحه حتى في هذه اللحظة ، وبالتالي يمكنك الاستمرار مرة اخرى »، ابتسم بسخرية ، وهو يلقي نفسه على السرير « الاستمرار؟ هذه الكلمة بت اخافها حتى الموت . لماذا الاستمرار ؟ الكي أهزم مرة اخرى ؟ ان ارى نفسي وسط الساحة وحولي أعلام منكسة تشير الى هزيمتي من جديد ؟ » حلقت عيناه بتعب فوق سطح اللوحة المعلقة على الحائط « منذ سنوات طويلة وتلك البذرة موجودة في دمي . كنت اشعر دائما انني غير جدير بالحياة » ، اغمض عينيه على الازهار الصناعية والزجاجتين والمزهرية « رغم هذا الوضع فلقد استمررت في الحياة خادعا نفسي بقدرتي على مجاراة الاخرين » .

كانت العتمة في النافذة تعكس ظلالها على الطاولة، تغمر كوب الشاي البارد « لا ادري لماذا تنمي في نفسك عقدة النقص التي تحسها تجاه الحياة . لقد اكدت لك أكثر من مرة : انك لا تعاني من اي عقدة ، انما شعورك النفسي بها ، هي التي وضعتك في حالة تحس من خلالها بأنك اقل قدرا ومكانة من الاخرين . قل لي : ما هي ميزات الاخرين عنك ؟ » ، ابتسم بسخرية ، لوى عنقه صوب ارجل الطاولة المغطاة بخوان قاتم « هل تبغي بحديثك هذا ان تنفخني القدرة على الاستمرار كما في مراتك السابقة؟ ان كان هذا ما يجول في خاطرك ، فأنت مخطىء . لقد وصلت الى حافة الهاوية . فأنا لم اعد قادرا على احتمال هزائم اخرى ، لم تعد لي مقدرة على احتمال الضحكات والسخرية من الاخرين . هذا هو قدري الذي لا مفر منه»، وهن صوته « انت مخطىء لا يوجد شيء اسمه القدر طالما تملك عقلا تستطيع الكشف به عن جوهر الاشياء ال...»، حرك يده علامة الاستياء « انت والعقل ؟ هل تعتقد عندما وجدت نفسي اليوم مهزوما اني لم اكن املك عقلا ؟ او لم يكن عقلي يعمل ساعات صراعي الطويلة ، محددا لي النقاط والسبل والطرائق التي تفضي بي الى ساحة النصر ؟ »، قام ، وقعت انظاره على المنفضة المملوءة بالرماد، وقصاصات الورق واعقاب السجائر واعواد الثقاب المحروقة « انت عنيد ، لا تريد ان تفهم جوهر الامور ، لا تريد ان تبحث عن اسباب الهزيمة الجديدة التي عشتها اليوم . انت فقط تفكر بأنك هزمت . اما ان تسأل نفسك لماذا هزمت ؟ فهذه القضية غير واردة في ذهنك .»

مد يده الى كأس الشاي ، شعر ببرودة السائل القاتم فيه ، تركه وهو يبتسم بسخرية « لا تحاول نصحي وارشادي من اجل الاستمرار في هذه الحياة . لقد اتخذت قراري اثناء عودتي الى البيت » ، رفع وجهه

الى السقف ، ادار نظره داخل البيت : نوافذ ، ستائر ، طاولة ، أزهار صناعية من البلاستيك ، كاس شاي بارد، منفضة سجائر ، لوحة حائط ، مصباح كهربائي مطفأ .

ثبت نظره في السقف ، تخيل مكان السلك الكهربائي حبل ليفي غليظ ، يتدلى منه رجل ازرق الوجه ، نافر العروق ، ممطوط اللسان والزبد يغطي صدره .

٤ ـ الشمس .

هذه القصص الثلاث ، كتبتها منذ عدة اسابيع ، وكلما حاولت تشذيبها ، كنت اعجز عن حذف كلمة منها ، او اضافة حرف واحد اليها، فأترك الاوراق من بين يدي ، مبعدا جذعي عن الطاولة ، ثم اسند ظهري الى مؤخرة الكرسي ، انقلّ نظري بين مسودات القصص وبين المنفضة المملوءة باعقاب السجائر وارماد واعواد الثقاب المحروقة.

رفعت نظري الى النافذة المغلقة ، المغطاة بالستارة الوردية المسدولة عليها بسكون تام. فانا لم استطع بعد انتهائي من كتابتها ، ولمدة طويلة ، ان اغير حتى عناوينها غير الملائمة لها ، من عادتي ان اضع عناوين قصصي باديء الامر كيفما اتفق . ومن ثم اغير العناوين مع عملية تشذيب القصص . أشطبها لاثبت أخرى مكانها أكثر انسجاما ، مع مضمونها ، ولكني اليوم ، ومع هذه القصص الثلاث تغير حالي . كنت قد قراتها مرارا ، باغيا ان اجد صلة بين هذه القصص الباردة ، المهزومة ، الميتة ... التي أثارت في نفسي مشاعر القرف . لذا كنت اتركها ، اترك القلم يسقط من بين اصابعي،ثم اقوم منسحبا عن الكرسي، مبتعدا عن الطاولة ، كأنني اهرب من مكان ارتكبت فيه جريمة ما .

مددت يدي الى كوب الشاي ، فوجدت فيه السائل الاحمر قد ابترد . قمت متحمسا الى المطبخ لاعيد الحرارة والدفء اليه ، وعندما عدت رشفت منه اولى رشفاتي . فشعرت بطعم الشاي الساخن ، العذب . اشعلت لنفسي سيكارة ، ونفخت من انفي دخانها وانا انظر الى اللوحة المثبتة على الحائط . رحت أؤكد لنفسي بأن هذه اللوحة رغم الظلال التي تخفي ملامحها عن ناظري ، لوحة جميلة. اعرفها منذ زمن ، بها الوان تنبض بالحرارة والدفء والحياة خاصة الازهار الحمراء والبيضاء الموضوعة في المزهرية الوردية .

رفعت مسودات القصص الثلاث بين اصابعي ، قلبتها مفكرا، لقد وصلت الى طريق مسدود ، ستبقى مسودات بين اوراقي . ثم تساءلت عن الاسباب التي دفعتني لكتابة مثل هذه القصص . فلم استطع الاجابة . فانا لا اعرف حتى الان الاسباب التي دفعتني ان اكتب هذه القصص الباردة الصقيعية .

تلفت حولي ، كانت الغرفة غارقة في ظلال رمادية ، فاستغربت . لماذا لا اسحب الستائر عن النافذة ؟ وقبل ان اتحرك من مكاني، رشفت من كوب الشاي رشفة تمتعت بمذاقها الحلو ، العذب . ثم سحبت الستارة عن النافذة. كانت النافذة مغلقة ، ففتحتها ... اندفعت الى داخل الغرفة موجة من الهواء والاصوات الادمية . فشعرت بدغدغة في صدري ، وبانفاس نقية تتسلل الى رئتي. عدت الى الطاولة بخطوات عادية ، تناولت مسودات القصص ، ثم عدت ادراجي الى النافذة المفتوحة وانا اقاوم رغبة عظيمة في نفسي ان اخرج وامشي بين الناس،اطوف في الشوارع والازقة ، اجلس في الحدائق ، و...

دون ان ادري ، شعرت باصابعي تمزق القصص الثلاث الى مزق صغيرة ، صغيرة حتى وصل بي الامر اني لم أعد بقادر على تمزيقها اكثر مما وصلت اليه من تمزيق، فرفعت يدي ، ونثرت القصاصات عبر النافذة المفتوحة على صفحة السماء الزرقاء الموشاة باشعة الشمس الساطعة .

حلب